د.مباركية عيسى
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المقياس: قضايا نقدية
التخصص: أدب حديث ومعاصر ـ ماستر
المستوى: ثانية ماستر، السداسي 3

المحاضرة رقم 06

عنوان المحاضرة: التناص

يعد التناص من المصطلحات النقدية التي لاقت رواجا لافتا في الدراسات النقدية، وقد ساهم هذا المصطلح بشكل فعال في فهم النصوص الأدبية، باعتبارها تراكما لنصوص سابقة، يعمد الكاتب إلى تضمينها في نصوصه بشكل واع أو غير واع، فيسعى الناقد للتنقيب عنها وإبرازها للقارئ، عبر عملية أركيولوجيا تستهدف التنقيب في طبقات النص الخفية.

وتكمن أهمية هذا المصطلح / أو هذه النظرية في كونه أخرج النص الأدبي من سجنه المغلق الذي فرضته عليه البنيوية، وأتاح هذا الأخير لمناهج جديدة أن تظهر للوجود وهي مناهج ما بعد البنيوية، التي تعترف – بطريقة مختلفة – أن للنص علائق خارج حدوده، أيا كانت تلك العلائق (لغوية، فكرية، اجتماعية...)، وقد عبر "عبد الملك مرتاض" إلى القول أن التناص يمثل "للنص الإبداعي الأكسجين الذي يشم ولا يرى ولكن لا أحد ينكره".

التناص عند الغربيين (النشأة والمفهوم):

تتكون كلمة intertextualité في اللغات الأوروبية مثل الفرنسية، على سبيل المثال من جزأين "الجزء الأول هو البادئة inter، والتي تشير إلى التبادل، والجزء الثاني textualité يشير إلى النص أو النصوص، مما يعني أن المصطلح يشير إلى تبادل النصوص أو تداخل النصوص، فقد تعددت الترجمات إلى العربية مثل: النصوصية، تفاعل النصوص، والبينصوص، والنص الغائب... إلخ".

وجل الباحثين يرجعون الفضل في ظهوره إلى الباحثة "جوليا كريستيفا"، التي طورت هذا المفهوم عن (مفهوم الحوارية) أو ما يسمى (بالصوت المتعدد) الذي اقترحه الناقد الروسي "ميخائيل باختين" أحد الشكلانيين الروس، وهو أول من نبه إلى ظاهرة التناص في الأعمال الأدبية "حينما أكد أن النص الأدبي ذو طابع حواري، وأن أي نص لابد أن يدخل في حوارات مع نصوص أخرى، لأن الأديب يتطور في عالم مليء بكلمات الآخرين فيبحث في خضمها عن طريقه فيعثر على الكلمات التي تسكنها أصوات أخرى، واهتم اهتماما خاصا بالوقوف على حقيقة التفاعل الواقع في النصوص في استعادتها أو محاكاتها لنصوص أو لأجزاء من نصوص سابقة عليها"، وأكد أن "كل نص يقع عند ملتقى مجموعة من النصوص الأخرى، يعيد قراءتها ويؤكدها ويكثفها ويحولها ويعمقها في الوقت نفسه".

وقد استثمر مبادئ الأيديولوجيا الماركسية التي تقوم على إلغاء صوت الفرد لصالح صوت الجماعة، مسقطا ذلك على اللغة بهدف إضفاء الطابع الجماعي عليها، فاللغة تنشأ وتنمو نتيجة التفاعل اللفظي بين الكلمات، كما ينشأ المجتمع ويتطور جراء التفاعل بين الأفراد، فإذا كان التفاعل اللفظي أساس اللغة، فإن الحوار هو أحد أشكال التفاعل اللفظي، وهو ما يؤكد تعدد الأصوات والمواقف بتعدد الألفاظ، بناء على هذه الأفكار أسس لمفهوم كان بمثابة مقدمة طبيعية لظهور التناص ذلك هو مفهوم الحوارية (dialogisme).

ثم تطور هذا المفهوم حتى استوى على سوقه على يد الناقد البلغارية "جوليا كريستيفا" التي تنبهت لجهود "ميخائيل باختين" وهو يركز على الطابع الاجتماعي للغة في كتبه النقدية المتتابعة، فقادتها دراستها وملاحظاتها إلى أن "كل نص يتشكل من تركيبة فسيفسائية من الاجتهادات، وكل نص هو امتصاص أو تحويل لنصوص أخرى".

والمبدع – سواء كان شاعرا أو كاتبا – يمارس التناص بوعي أو لاوعي، كما أن القراءة تثير لدى المتلقي خبراته وذكرياته السابقة، وهذا الحوار الذي يدور بين النص وكاتبه والنص ومتلقيه هو عينه التناص وبذلك استطاعت أن تنفي مقولة النص المغلق التي تزعمها البنيويون لتحل محلها مقولة النص المفتوح"

ومن هنا تم استبدال مصطلح الحوارية بمصطلح التناص وأصبحت "جوليا كريستيفا" رائدة من رواد التناص والتي اعتبرته أحد الميزات الأساسية التي تحيل على نصوص أخرى سابقة عنها أو معاصرة لها، أو هو عملية تحويل واقتطاع من نص إلى آخر.

وسجل "رولان بارت" من خلال مقولته الشهيرة (موت المؤلف) منعطفا جديدا لنظرية التناص التي اتسعت آفاقها من خلال هذه النظرية الجديدة والتي أوضح صاحبها أن تطوير النص لا يتم إلا بالاستغناء عن المؤلف، إذ بات موته ضرورة ملحة إن لم يكن موته فضيلة كبرى لكي يحيا النص بعيدا عن سطوته، وأشار إلى أن مقولته هذه "لا تعني إلغاء المؤلف، وحذفه من دائرة الثقافة، إنما تهدف إلى تحرير النص من سلطة الطرف المتمثل بالأدب المهيمن: المؤلف؛ غنها تفتح النص على القارئ ... وتزيح المؤلف مؤقتا، إلى أن يمتلئ النص بقارئه و القارئ بالنص"، "فـ "رولان بارت" بهذا المفهوم يعطي السلطة للقارئ المتمكن الذي يمتلك حاسة الذوق الجمالي. وهو يرى أن :" التناص قدر كل نص مهما كان نوعه وجنسه، ولا يقتصر حتما على مسألة المنبع، أو التأثير ، والتناص مجال عام للصيغ المجهولة، التي نادرا ما يكون أصلها معلوما، والتي تأتي بصورة استجابات عفوية ولا شعورية".

ثم تلاه الناقد الفرنسي "جيرار جينيت" الذي أثرى هذه النظرية بجملة من الدراسات، وطور المفاهيم المتصلة بالعلاقات النصية، وأغنى حقل التعامل مع النص الأدبي بما أسماه بالمتعاليات النصية transtextualité ويقصد بها "كل ما يجعل نصا يتعالق مع نصوص أخرى بطريقة ظاهرة (مباشرة) أو خفية (ضمنية)".

وحدد خمسة أنماط من المتعاليات النصية وهي: "التناص intertexte، المناص paratexte، الميتناصmétatexte ، النص اللاحق hypertexte، النص السابق hypotexte".

حضور التناص في النقد العربي:

إن المتتبع لجذور التناص في تراثنا العربي، يجده متداولا منذ القدم، ولكن تحت مسميات أخرى وبأشكال تقترب من المصطلح الحديث، والتي تتمثل في (الموازنة، الاقتباس، الإشارة، التضمين، السرقات الأدبية... إلخ

أما على الساحة النقدية العربية المعاصرة فقد ظهرت أواخر السبعينات من القرن العشرين بعد أن قطعت أشواطا بعيدة في موطنها الأصلي واستقر مصطلحها ووضحت مفاهيمها وقاربت على النضج التام، وحظيت بأعداد لا تحصى من الدراسات النقدية.

وأول من نقل المصطلح إلى اللغة العربية الشاعر الناقد "محمد بنيس" في كتابه: (ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب) عام 1979، وقد ترجمه وقتها بـــ "النص الغائب" وهو مرادف لمصطلح التناص عنده ثم في سنة 1988، واستعمل مصطلح "التداخل النصي" في عام 1989 في كتابه (الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاته) إلا أن مفهومه للتناص لا يخرج عن تعريف "جوليا كريستيفا".

وتبع ذلك ظهور كتاب الناقد "محمد مفتاح" (تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص) 1985، الذي يعد علامة بارزة وعتبة ظاهرة في انتشار المصطلح وتعميمه، حيث كان لهذا الناقد الفضل الكبير في تطوير وإغناء هذا المفهوم الجديد، فقد كان أول كتاب يعالج التناص بتوسع واضح ويتناول تجليات المصطلح والمفهوم مستفيدا من كتابات الحقبة البنيوية ومابعدها باستقلالية نقدية، وفهم عميق منطلقا من اللسانيات والسيميائيات.

ثم تبعته مجموعة من النقاد المغاربة واللبنانيين كسعيد يقطين وبشير القمري وسامي سويدان وغيرهم، حيث عكفوا على نظرية التناص يفرعونها في شكل أنواع وأقسام ومفاهيم اصطلاحية، ويخضعون من خلالها النصوص الأدبية العربية القديمة منها والحديثة للتحليل، حتى سرى هذا المفهوم في الساحة النقدية العربية سريان النار في الهشيم، ولم تعد تخلو منه دراسة أدبية أو نقدية على الرغم من اختلاف الترجمات والمدارس النقدية قد أفضى إلى اختلاف التسميات التي تعددت كمصطلح النص الغائب، وهجرة النص، والتعالق النصي، وتداخل النصوص، والنصوصية والتفاعل النصي والتناصص وغيرها.

ونشير هنا إلى أمر مهم وهو أن تعريفات النقاد العرب للتناص لا تكاد تخرج عن تعريفات الغربيين في شيء فهي مجرد تكرار لها أو تعريب وترجمة هذه التعريفات.

مراجع ومصادر المحاضرة:

ـــ حمدي أحمد عدنان: التناص وتداخل النصوص المفهوم والمنهج في شعر المتنبي.

ـــ محمد بنيس: الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاته.

.ـ تزيفيتان تودوروف: في أصول الخطاب النقدي الجديد، تر: أحمد المديني.

ـــ جوليا كريستيفا: علم النص، تر: فؤاد زاهي.

ـــ رجاء عيد: القول الشعري.

ـــ رولان بارت: نقد الحقيقة، تر: منذر عياشي.

ـــ رولان بارت: نظرية النص.

ـــ جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلد25، ع03، مارس1997، الكويت.